المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

المذهب المالكي أيام الشيعة العبيدية في المغرب الإسلامي

أ. مبروك بن عيسى.
جامعة الدكتور مولاي الطاهر، سعيدة.

تاريخ الارسال: 28 ديسمبر 2017	تاريخ القبول: 13 جويلية 2018	تاريخ النشر: 01 ديسمبر 2018

ملخص:

لما استولت الدولة الشيعية العبيدية على السلطة في المغرب الإسلامي، وكشفت اللثام عن عقيدتها الحقيقية الرافضية المعادية للقرآن والسنة، وأظهرت ذلك في دوائر الحكم وفي المساجد والأسواق والشوارع، لقيت معارضة شديدة من المذهب المالكي خاصة. فرأت أن استقرارها في المغرب العربي مهدَّد بالزوال مع وجود المذهب المالكي الراسخ في هذه الأرض، فاعتمدت لغة القوة وأسلوب السلاح، لاقتلاع المذهب المالكي، وإخلاء الساحة من المواجهة، وفرض سياسة الأمر الواقع، وبسط النفوذ العبيدي، في سبيل بناء الدولة العبيدية. وقد وقف المالكية وقفة رجل واحد في مواجهة السلطة العبيدية المارقة عن الدين والفطرة. فرأوا أن العبيديين زنادقة، كفرة، ودعوا إلى مقاطعتهم، لما أظهروا من خلاف الشريعة، ومحاربة الدين وأهله. هذا، ورغم ما أصاب المذهب في هذه الأوضاع البائسة من وإصابات مفصلية بليغة وضربات قاسية ألحقت أشد الأذى بالمذهب، فقد استطاع المذهب أن يستعيد طاقته ويتعافى زمنا ما وينتشر من جديد ويسود بعد سقوط الدولة العبيدية.

الكلمات المفتاحية: المذهب، المغرب، الإسلامي.

Abstract.

It is what the Shiite state Ubaydi seized power in the Islamic Maghreb, And it revealed the true rejectionist anti-Qur'an and Sunnah faith, and it showed in the ruling circles in mosques, markets and streets, And found strong opposition from especially Maliki doctrine .It saw that its stability in the Maghreb is threatened with extinction in the presence of Maliki doctrine rooted in this land, It adopted the language of force and style weapon to root out the Maliki doctrine, And the evacuation of the scene of the confrontation, and impose a fait accompli policy, and extend their influence al-Obeidi, in order to build and install Ubaydi State. Maalikis The stop, pause and one man in the face of the rogue Ubaydi power of religion and common sense, they saw that the Ubaid heretics, infidels, and called for a boycott, because of a dispute showed the law, and the fight against religion and its people.

This, in spite of what happened to the doctrine in this miserable situation of articulated and eloquent severe injuries and blows inflicted more harm doctrine, the doctrine has been able to regain his energy and recovering for so what and spread of new and prevail after the fall of the state Ubaydi.

Keywords: Doctrine, Islamic, Morocco.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

مقدمة:

لما استولت الدولة الشيعية العبيدية على السلطة في المغرب الإسلامي، وكشفت اللثام عن عقيدتها الحقيقية الرافضية المعادية للقرآن والسنة، وأظهرت ذلك في دوائر الحكم وفي المساجد والأسواق والشوارع، لقيت معارضة شديدة من المذهب المالكي خاصة. فرأت أن استقرارها في المغرب العربي مهدَّد بالزوال مع وجود المذهب المالكي الراسخ في هذه الأرض، فاعتمدت لغة القوة وأسلوب السلاح، لاقتلاع المذهب المالكي، وإخلاء الساحة من المواجهة، وفرض سياسة الأمر الواقع، وبسط النفوذ العبيدي، في سبيل بناء الدولة العبيدية. وقد وقف المالكية وقفة رجل واحد في مواجهة السلطة العبيدية المارقة عن الدين والفطرة. فرأوا أن العبيديين زنادقة، كفرة، ودعوا إلى مقاطعتهم، لما أظهروا من خلاف الشريعة، ومحاربة الدين وأهله. هذا، ورغم ما أصاب المذهب في هذه الأوضاع البائسة من وإصابات مفصلية بليغة وضربات قاسية ألحقت أشد الأذى بالمذهب، فقد استطاع المذهب أن يستعيد طاقته ويتعافى زمنا ما وينتشر من جديد ويسود بعد سقوط الدولة العبيدية.

1- مفهوم المذهب المالكي.

أولاً: المذهب.

أ) في اللغة: جاء في الكتاب: المذهب في الأصل مفعل، من الذهاب، ويقال المذهب للمكان. ([1])

وقال الفيومي: ذهب مذهب فلان: قصد قصده وطريقته، وذهب في الدين مذهبا: رأى فيه رأيا. ([2])

وقال ابن منظور: المَذهب: المُتوضأ، لأنه يُذهب إليه، وفي الحديث: عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال:[**كنت مع النبي ρ في سفر، فأتى النبي ρ حاجته، فأبعد في المَذهب**]. ([3])

وقال الكسائي: يقال لموضع الغائط: الخلاء، والمذهب، والمرفق، والمرحاض. والمذهب: المعتقد الذي يذهب إليه، وذهب فلان لذهبه، أي لمذهبه الذي يذهب فيه.

وحكى اللحياني عن الكسائي: ما يُدرى له أين مَذهَبٌ، ولا يُدرى له ما مَذهَبٌ، أي لا يُدرى أين أصله. ويقال: ذهب فلان مذهبا حسنا. وقولهم به: مُذْهَب (بضم الميم وفتح الهاء)، يعنون الوسوسة في الماء، وكثرة استعماله في الوضوء. قال الأزهري: وأهل بغداد يقولون للموسوس من الناس: به المُذْهِبُ (بضم الميم وكسر الهاء)، وعوامُّهم يقولون: به المُذْهَب، (بفتح الهاء)، والصواب المُذْهِبُ (بضم الميم وكسر الهاء). ([4])

والمذهب في الأصل مصدر ميمي، فالمذهب بمعنى المذهوب إليه، لأن الأحكام مذهوب إليها لا فيها. ويطلق المذهب مرادا به المكان والزمان والحدث، ثم تعورف في الأحكام التي ذهب إليها إمام من الأئمة.

([1]) الكتاب: كتاب سيبويه، أبي بِشر عمرو بن عثمان بن قَنبر، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، 89/04، الطبعة الثانية 1402 هـ = 1982 م، مكتبة الخانجي، القاهرة – جمهورية مصر العربية.

([2]) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد الفيومي، مادة: ذ هـ ب، 210/01، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان.

([3]) رواه الترمذي في أبواب الطهارة 20/16، والبيهقي في سننه في كتاب الطهارة 448.

([4]) لسان العرب، لابن منظور، مادة: ذهب، 394/01، الطبعة الثالثة 1414 هـ، دار صادر، بيروت – لبنان.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

والمذهب: موضع الذهاب؛ وهو المرور، وأصله الطريق، ثم نقل منه إلى الأحكام الشرعية الفرعية الاجتهادية التي هي طرائق المجتهدين، يمرون عليها بأقدام عقولهم الراسخة لتحصيل الظن بها. ([5])

ب) **في اصطلاح الفقهاء:** المذهب هو حقيقة عرفية فيما يذهب إليه إمام من الأئمة في الأحكام الاجتهادية. ([6])

ويطلق المذهب عند علماء الفقه على المنهج الفقهي الذي سلكه فقيه مجتهد اختص به من بين الفقهاء، أدى به إلى اختيار جملة من الأحكام في مجال علم الفروع.

وعرَّفه القرافي، بقوله: « مذهب مالك: ما اختص به من الأحكام الشرعية الفروعية الاجتهادية، وما اختص به من أسباب الأحكام والشروط والموانع والحجاج المثبتة لها ». ([7])

وعرَّفه الدردير: « مذهب مالك: عبارة عما ذهب إليه من الأحكام الاجتهادية التي بذل وسعه في تحصيلها ». ([8])

وهذه التعريفات هي تعريف المذهب من حيث هو مذهب، ولا اختصاص له بمذهب إمام دون غيره.([9])

وليس كل مسائل الفروع يصح أن يدخل في إطارها ما يسمى بـ: المذهب الفقهي، فالأحكام التي لا مجال للاختلاف فيها، لكون أدلتها قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، مثل: وجوب الصلاة وعدد ركعات الصلاة ووجوب الصوم والزكاة، ونحو ذلك، لا يصح أن تنسب إلى مذهب شخص بعينه، فلا خصوصية لواحد منهم بواحد من هذه، فإن مذاهبهم جميعا في هذه مذهب واحد.

يقول القرافي في الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام: « لا يقال: هذا مذهب مالك أو الشافعي إلا فيما يختص به، لأنه ظاهر اللفظ في الإضافة والاختصاص ». ويقول أيضا: « المذاهب إنما هي طرق معنوية، لا يضاف لعالم منها إلا ما اختص به، والمذاهب المشهورة أربعة، ولن يحصل التعدد إلا بالاختصاص، لا بالمشترك بينها ». ([10])

([5]) تاريخ الفقه الإسلامي، للدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرفور، ص 78، الطبعة الأولى 1416 هـ = 1995 م، دار الكلم الطيب للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سورية.

([6]) تاريخ الفقه الإسلامي، للدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرفور، ص 78، الطبعة الأولى 1416 هـ = 1995 م، دار الكلم الطيب للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سورية.

([7]) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، لشهاب الدين القرافي، بعناية عبد الفتاح أبو غدة، ص 195، الطبعة الثانية 1416 هـ = 1995 م، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

([8]) بلغة السالك لأقرب المسالك على الشرح الصغير، للشيخ أحمد الدردير، للشيخ أحمد الصاوي، ضبط وتصحيح محمد عبد السلام شاهين، 13/01، الطبعة الأولى 1415 هـ = 1995 م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

([9]) المدخل إلى دراسة المدارس والمذاهب الفقهية، للدكتور عمر سليمان الأشقر، ص 44- 45، الطبعة الثانية 1418 هـ = 1998 م، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان – الأردن.

([10]) الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، لشهاب الدين القرافي، ص 194- 195.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

ويقول الدردير: « الأحكام التي نص الشارع عليها في القرآن والسنة لا تعد من مذهب أحد من المجتهدين ». ([11])

وفي اصطلاح المتأخرين: يطلق المذهب على ما به الفتوى، من باب إطلاق الشيء على جزئه الأهم، كالحج عرفة، لأن ذلك هو الأهم عند المقلِّد. ([12]) والمذهب هو ما قاله الإمام هو وأصحابه على طريقته، ونسب إليه مذهبا، لكونه يجري على قواعده وأصله الذي بنى عليه مذهبه، وليس المراد ما ذهب إليه وحده دون غيره من أهل مذهبه. ([13])

ومن المسلَّم أن ابن القاسم خالف مالكا في أكثر من مسألة، حصرها قاسم بن ناجي (ت 837 ه) في شرح المدونة، في أربع مسائل في الزكاة. ([14]) كما اختار يحي بن يحي الليثي أحد كبار تلاميذ مالك وناشر مذهبه في الأندلس وصاحب الرواية المشهورة للموطأ، رأيا مخالفا لمذهب مالك في مسائل معينة، تابعه أهل الأندلس في أكثرها.

وحينما سئل أبو العباس أحمد بن عثمان بن عجلان القيسي (ت 678 ه) أحد العلماء المالكية المتأخرين عن اختيارات المتأخرين من الفقهاء، كاللخمي وابن بشير وغيرهما: هل تحكى أقوالا في المذهب؟ فقال: نعم، يحكى قول اللخمي وغيره قولا في المذهب، كما يحكى قول من تقدم من الفقهاء قولا في المذهب.

وهذا الرأي يجعل كل جواب بني على أصول المذهب وطريقته، من المذهب، فيصح أن تضاف هذه الأقوال إلى المذهب وتعد منه وبفتى بها. ([15])

هذا، ويعتبر مصطلح المذهب اصطلاح حادث، فلم يكن معروفا في الصدر الأول، ولا في زمن الأئمة الذين ينسب إليهم، إذ لم يدع أحد من الأئمة إلى التمسك بمنهجه في الاجتهاد.

ويرى الدكتور عمر الجيدي بأن هذا الاصطلاح لم يظهر إلا في القرن الرابع الهجري عندما دعت الظروف إلى هذا النوع من الالتزام بمنهاج معين في الفقه والتشريع، ولم تكن المذاهب قد استقرت على رأس المائة الثالثة، وإن كانت بذرة المذاهب قد بدأت قبل هذا العصر بزمان، إذ كان أهل المدينة

([11]) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير، 19/01، دار الفكر، بيروت – لبنان.

([12]) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، 24/01.

([13]) حاشية العدوي على شرح أبي الحسن، المسمى: كفاية الطالب الربَّاني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، 26/01، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

([14]) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، لمحمد بن الحسن الحجوي، بعناية أيمن صالح شعبان، 516/01، الطبعة الأولى 1416 ه = 1995 م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

([15]) عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، لأبي العباس أحمد بن أحمد الغِبْرِيني، تحقيق وتعليق عادل نويهض، 100/01- 101، الطبعة الثانية 1979 م، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت – لبنان.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

يعتمدون على فتاوى ابن عمر، وكان أهل مكة يعتمدون على فتاوى ابن عباس، وأهل الكوفة على فتاوى ابن مسعود، فكان هذا أول غرس للتمذهب بالمذاهب. ([16])

ثانياً: المالكي: نسبة إلى الإمام مالك بن أنس الأصبحي المدني، بياء النسبة (ي). ويستقي هذا المذهب أصولَه من شيوخ المدينة وكبار محدِّثيها، أمثال: ابن شهاب الزهري، ونافع مولى ابن عمر، وهشام بن عروة بن الزبير. ([17])

2- مفهوم الشيعة العبيدية.

أولاً: الشيعة.

أ) في اللغة: شيَّع فلانا: خرج معه يودِّعه، وشيَّعه على رأيه: تابعه، وشيَّعه: جرَّأه وشجَّعه، وشيَّعه: أرسله وأتبَّعه وقوَّاه. وشيَّع الرجلُ: ادَّعى دعوة الشيعة. ([18])

ب) في الاصطلاح: الشيعة عند المتكلمين والفقهاء: هم أتباع علي وبنيه، رضي الله لهم عنهم. ومذهبهم جميعا: أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوَّض إلى نظر الأمة، ويتعيَّن القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر، وأن عليا رضي الله عنه هو الذي عيَّنه رسول الله ρ، بنصوص ينقلونها ويؤولونها تأويلات بعيدة وفاسدة، بمقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السنة، ولا نقَلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في سنده. ([19])

وقد قسَّم العلماء فرق الشيعة إلى ثلاثة أقسام: غلاة، وإمامية، وزيدية. وتتفرع عن كل قسم منها فرق. ([20])

ثانياً: العبيدية.

العبيدية: هم أتباع عبيد الله المهدي، مؤسس الدولة العبيدية في المغرب العربي ومصر. ([21])

3- مفهوم المغرب الإسلامي.

([16]) مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، للدكتور عمر الجيدي، ص 09، الطبعة الأولى 1993 م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط – المملكة المغربية.

([17]) تاريخ الفقه الإسلامي، للدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرفور، ص 108.

([18]) معجم متن اللغة؛ موسوعة لغوية حديثة، لأحمد رضا، مادة: ش ي ع، 399/03، الطبعة الأولى 1378 هـ = 1959 م، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان.

([19]) مقدمة ابن خلدون؛ وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون، المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن بن خلدون، تحقيق الأستاذ خليل شحادة، ومراجعة الدكتور سهيل زكار، ص 246، الطبعة الأولى 1401 هـ = 1981 م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

([20]) موقف أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع، للدكتور إبراهيم بن عامر الرَّحيلي، 140/01، الطبعة الأولى 1415 هـ، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة – المملكة العربية السعودية.

([21]) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، لمبارك الميلي، تقديم وتصحيح محمد الميلي، 129/02- 137، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

تعني بلاد المغرب الإسلامي قديما: شمال إفريقيا والأندلس. أي المغرب، وتونس، وليبيا، وطرابلس، والجزائر، وموريتانيا، والأندلس. ويطلق الجغرافيون والمؤرخون المسلمون على البلاد الممتدة من برقة غربا حتى المحيط الأطلسي؛ اسم المغرب. ([22]) ويقول الشيخ عبد الواحد المراكشي في ذلك: « أقاليم المغرب هي من لدن برقة إلى سوس الأقصى، وجزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها ». ([23])

4- تاريخ ظهور المذهب المالكي في المغرب الإسلامي.

انتشر المذهب المالكي في المغرب الإسلامي باكرا في حياة الإمام مالك، بواسطة تلاميذه الوافدين إليه منه. وكان عددهم يربو على الثلاثين (30) تلميذا. ومن أبرز هؤلاء التلاميذ أثرا في ذلك: علي بن زياد التونسي (ت 183 هـ)، والبُهْلُول بن راشد (ت 183 هـ)، وعبد الرحيم بن أشرس، وعبد الله بن غانم القاضي (ت 190 هـ).

وهؤلاء العلماء هم الذين وضعوا الحجر الأساس للفقه المالكي في بلاد المغرب. وكان أكثرهم تأثيرا في ذلك: علي بن زياد، صاحب العبقرية الفذة، وتلميذيه: أسد بن الفرات (ت 213 هـ)؛ الذي كان له أكبر الأثر في تدوين فقه هذه المدرسة في كتابه المعروف بـ: الأسدية. وأيضا: سحنون؛ الذي استطاع هو الآخر أن يربط تلك الفروع بأصولها في كتابه: المدونة.

وقد ازدهرت هذه المدرسة في عهد سحنون ازدهارا كبيرا، حتى جعل محمد بن حارث الخشني (ت 361 هـ) عهده كأنه مبتدأ قد محا ما قبله، فكان عالم القيروان، ومحمد بن عبدوس (ت 260 هـ) فقيهها، ويحي بن عمر الأندلسي (ت 289 هـ) حافظها. وجاء من بعد هؤلاء: أبو بكر بن اللباد (ت 333 هـ)؛ الذي كان بدوره أحد حفاظ المذهب، على غرار شيخه يحي بن عمر وأصحابه من كبار علماء المذهب، خاصة درّاس بن إسماعيل الفاسي (ت 357 هـ)؛ وهو ناشر فكر هذه المدرسة بفاس، وعبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ)؛ الذي انتشل ذلك الفكر من الضياع، بذهاب أئمته نتيجة المحن والنكبات المتوالية عليهم أيام العبيدين. ([24])

وقد انتشر المذهب في أنحاء المعمورة، واعتمِد في بعض الدول في العالم الإسلامي. وقد عمل الأمويون في الأندلس على نشره ([25])، بل أصبح في حياة مؤسسه المذهب الرسمي للدولة في الأندلس، فقد أخذ هشام بن عبد الرحمن بن معاوية أمير الأندلس حينئذ جميع الناس بإلزامهم مذهب مالك،

([22]) قيام دولة المرابطين؛ صفحات مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، للدكتور حسن أحمد محمود، ص 12، دار الفكر العربي، القاهرة – جمهورية مصر العربية.

([23]) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور محمد زينهم محمد عزب، ص 281، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة – جمهورية مصر العربية.

([24]) المذهب المالكي؛ مدارسه ومؤلفاته – خصائصه وسماته، لمحمد المختار محمد المامي، ص 95- 98، الطبعة الأولى 1422 هـ = 2002 م، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين – الإمارات العربية المتحدة.

([25]) تاريخ الفقه الإسلامي، للدكتور عمر سليمان الأشقر، ص 153- 155.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وصيَّر القضاء والفتيا عليه، وذلك في حياة مالك، وقريب من موته. وتلك سمة لم تتحقق لأي مذهب من المذاهب الإسلامية الأخرى.

وفي إفريقيا، وطَّد سحنون مذهب مالك، فكان لا يقضى إلا به. وفي مصر، أثمرت جهود ابن القاسم ونظرائه في نشره، كما أينعت كذلك جهود تلاميذ مالك في العراق. ولا يزال هذا المذهب غالبا على أهل المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا. كما انتشر المذهب في صعيد مصر والسودان والبحرين والكويت والإمارات العربية المتحدة، وبعض البلاد الإسلامية الأخرى ([26])، حيث امتد إلى خراسان ونيسابور وفارس واليمن والشام. ([27])

ولعل انتشار المذهب بهذه الصفة يرجع إلى عوامل مختلفة؛ ذاتية مرتبطة بشخصية الإمام مالك وسعة علمه وأدبه وأخلاقه وشهرته، وبعضها ارتبط بتلاميذ الإمام ونشاطهم في نشر المذهب في البلاد التي جاءوا منها وغيرها، وخدمتهم للمذهب حفظا وتدريسا وتأليفا، وعملهم على تمكينه وإقراره في القضاء والحكم والحياة الخاصة والعامة. وبعضها موضوعي يرجع إلى طبيعة المذهب ومرونته، وبعضها جغرافي يرتبط بالمدينة المنورة التي نشأ فيها المذهب، وقدسية المدنية وعظمتها وبركتها ومكانتها في النفوس، ونحو ذلك، بما هيأ له القبول.

5- نشأة الدولة الشيعية العبيدية.

قامت هذه الدولة على أنقاض دولة الأغالبة في إفريقيا (تونس حاليا)، على يد عبيد الله المهدي، سنة 296 هـ، ثم امتد نفوذها إلى بلاد شمال إفريقيا (المغرب العربي) ومصر، وعرفت في مصر باسم الدولة الفاطمية، ثم امتدت بعد ذلك إلى بلاد الشام والجزيرة العربية. ([28])

وقد نشأت الدولة الشيعية أول ما نشأت في بداية دعوتها في اليمن؛ التي كانت مركزا لها، لبعدها عن أنظار الدولة العباسية. ومن هناك بدؤوا في إعداد القوة العسكرية. واستطاع قائد الدولة رستم بن حوشب الكوفي حينذاك أن يستقطب بعض الفرس المعادين للمسلمين، ورأى أن أرض المغرب خصبة للدعوة الشيعية، فأرسل من اليمن رجلين من أنصاره، هما: أبو سفيان و الحلواني، إلى طرابلس وتونس، لنشر المذهب الشيعي ([29])، وقال لهما: « إن المغرب أرض بور، فاذهبا، فاحرثا حتى يأتي صاحبُ البذر ». فسارا، ونزل أحدهما بأرض كتامة، فمالت قلوب تلك النواحي إليهما، وحملوا إليهما الأموال والتحف، فأقاما سنين كثيرة. ([30]) واستطاعوا أن يتوغلوا بأفكارهم في قبائل البرانس ذات

([26]) اصطلاح المذهب عند المالكية، للدكتور محمد إبراهيم علي، ص 20- 22، الطبعة الأولى 1421 هـ = 2000 م، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي – الإمارات العربية المتحدة.

([27]) معلَمة الفقه المالكي، لعبد العزيز بن عبد الله، ص 296، الطبعة الأولى 1403 هـ = 1983 م، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان.

([28]) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 02/129- 137.

([29]) الدولة العبيدية في ليبيا، للدكتور علي محمد الصلابي، ص 47، الطبعة الأولى 1418 هـ = 1998 م، دار البيارق، عمَّان – الأردن.

([30]) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيَّال، 01/40- 41، الطبعة الثانية 1416 هـ = 1996 م، وزارة الأوقاف، القاهرة – جمهورية مصر العربية.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

القوة والشكيمة والعدة والعتاد، والتي تتطلع إلى إقامة دولة في المغرب على نهج الأدارسة في المغرب الأقصى، والأغالبة في تونس.

ومن بين الذين اختارهم ابن حوشب في اليمن: أبو عبد الله الشيعي؛ حسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي، من أهل صنعاء، لما له من مؤهلات في القيادة وعلم وذكاء وقدرة في التعامل مع الناس.

ويعتبر أبو عبد الله الشيعي المؤسِّس الفعلي للدولة العبيدية الرافضية في المغرب، إذ أرسله ابن حوشب بعد وفاة الحلواني وأبي سفيان في المغرب، وقال له: « إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لك غيرها، فبادر، فإنها موطَّأة ممهَّدة لك ». ([31])

غادر أبو عبد الله الشيعي اليمن قاصدا مكة، فوصلها في موسم الحج سنة 279 هـ ([32])، وبحث عن وفود المغاربة الحجاج، واستطاع هذا الداهية المخادع المحتال أن يتعرف على حجيج كتامة، فسمعهم يتحدثون عن فضائل أهل البيت، فاشترك معهم في الحديث، وتقرَّب إليهم، بما أظهر من زهد وفقه وعلم، وتمكَّن من قلوبهم، وسرُّوا بصحبته، ورجع معهم، موهما إياهم أنه يريد مصر لتعليم الأولاد القرآن الكريم، وعرضوا عليه الذهاب معهم، فأظهر عدم الرغبة، وبسياسته الماكرة، لبَّى طلبهم، ونزل القيروان، ليبحث عن نقاط الضعف في دولة الأغالبة، ويجمع المعلومات، لمعرفة أقوى القبائل، وإعداد الوسائل لدخول بلاد المغرب، فقرَّر الذهاب إلى قبيلة سكتاتة من قبائل كتامة في إيكجان. ونهَج نهْج المعلم المؤدِّب الزاهد الورع، فملك قلوبهم، وذاع صيته، وأقبلت عليه القبائل البربرية، وتصدَّى لتعليمهم وتفقيههم بالمذهب الشيعي، ثم أخذ يخوض في نظام الحكم والشورى في الإسلام، وفضل العلويين وأحقيتهم في الحكم، فاستجابت له بعض القبائل، ورأوا فيه المخلِّص من دولة الأغالبة.

وبدأ الصدام مع الأغالبة، وانتقل إلى حصن منيع في جبال الأوراس في بلدة تازورت. ومن هناك كان يوجِّه الضربات المتتالية إلى الأغالبة، وأخذ يحرِّض الناس على حكمهم، وأنه مخالف للإسلام، ومدى ظلمهم، ويثير الأحقاد القديمة بين الطرفين، ووعد كتامة بأن المستقبل لهم والتمكن بأيديهم والدولة لهم، فخضعت له القبائل. وتوالت المدن في السقوط، بانحلال دولة الأغالبة وضعفها. وأظهر من الكفاءة والحزم والشجاعة، ما جعله محل ثقة لمن حوله من القادة والجنود والأتباع، فرأى بأن الوقت قد حان لكشف دعوته.

وفي أوائل جمادى الأولى سنة (296 هـ = 909 م)، سقطت مدينة الأربس في يد قوات أبي عبد الله الشيعي. وهذه المدينة هي مفتاح العاصمة القيروان، وأعلن أبو عبد الله الشيعي أن الإمام الحقيقي للمسلمين هو عبيد الله المهدي؛ الذي سيصل قريبا إلى بلاد المغرب، ويظهر العدل والمساواة، فانضم

([31]) الدولة العبيدية في ليبيا، للدكتور علي محمد الصلابي، ص 47- 48.

([32]) تاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور محمد جمال الدين سرور، ص 22، دار الفكر العربي، القاهرة – جمهورية مصر العربية.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

إليه بعض قواد الأغالبة، وأصبح جيشه من مائتي ألف جندي، للدفاع عن المذهب الشيعي الإسماعيلي والدولة الجديدة. ([33])

حاول أبو عبد الله الشيعي أن يعتمد في نشر مذهبه على الدعاية والمناظرة، لإقناع علماء السنة، من أمثال: عثمان بن سعيد الحدَّاد، فأقاموا عليه الحجة وعلى دعاته، فاضطر إلى استخدام القوة، لقلع مذهب أهل السنة والجماعة من عاصمة الشمال الإفريقي، فمارس ضد علماء أهل السنة أصناف العنف والعذاب، فضربوا الفقهاء بالسياط، وقطعوا ألسنة بعضهم، وضربوا الرقاب، وأمعنوا في تقطيع أجسام بعض العلماء إلى أجزاء، وصلبوا الفقهاء، وصادروا الأموال، وبطحوا الناس على ظهورهم، وأمروا عبيدهم بأن يدوسوهم بالأقدام.

واشتد الصراع المذهبي، واهتزت الدولة الوليدة، فمنع أبو عبد الله الشيعي المناظرة والمجادلة، حسما للصراع، وعزل أخاه عن ولاية القيروان. ونجح في تثبيت دعائم الدولة في القيروان بواسطة زعماء قبائل كتامة، وأرسل إلى عبيد الله المهدي وابنه القاسم، للمجيء إلى القيروان، فجاء عبيد الله من سَلَمِيَّة بالشام إلى مصر ثم برقة ثم طرابلس، متخفيا في ثياب التجار، للنجاة من ولاة الدولة العباسية، فوقع في أسر بني مدرار أمراء سجلماسة.

واستطاع أبو عبد الله الشيعي سنة (297 هـ = 910 م)، أن يجهّز جيشا ضخما حطَّم به دولة بني مدرار، وخلَّص عبيد الله وابنه من السجن. وفي طريق عودته، مر الجيش بتاهرت، وأزال دولة بني رستم عام 297 هـ، وأصبح المغرب الأوسط إلى تلمسان دولة عبيدية. وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان سنة 297 هـ، وانتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد عشر (10) سنوات ([34])، إذ بلغ عبيد الله أنه يعمل ضده، فقبض عليه، وقتله. وانتقم الله منه بيد صديقه. ([35]) وأعلن عبيد الله المهدي قيام الدولة الفاطمية؛ التي بدأت تسعى للقضاء على الدولة العباسية، بعد القضاء على دولة بني مدرار ودولة رستم ودولة الأغالبة. ([36])

ولم يتم لعبيد الله المهدي أمر بالمغرب إلا أن قال: « أنا من آل رسول الله ρ ». وشاع بين الناس أنه علوي فاطمي، من ولد إسماعيل بن جعفر، وأن نسبه هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. فاستعبدهم بهذا القول الباطل، وهم أهل تعطيل وإباحة. وإنما جعلوا علاقتهم بآل رسول الله ρ للمكر والخديعة والتمويه على العامة. والعلويون على عدم صحة هذا النسب وبطلانه. ([37]) وقد هلك عبيد

([33]) الدولة العبيدية في ليبيا، للدكتور علي محمد الصلابي، ص 48- 49.
([34]) المرجع السابق، ص 50- 51.
([35]) المرجع السابق، ص 186.
([36]) المرجع السابق نفسه، ص 51.
([37]) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لتقي الدين المقريزي، 29/01- 37.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

الله سنة 322 هـ، وتمكَّن حفيده المعز من الاستيلاء على مصر. واستمر ملك العبيديين بها نحو قرنين من الزمان، إلى أن قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي سنة 564 هـ ([38])

6- أصول الدولة العبيدية.

عرفت الدولة العبيدية في التاريخ الإسلامي بأسماء مختلفة، ونسبت إلى أنساب متعددة، فتارة تسمى الدولة الشيعية العبيدية، وتارة الدولة الفاطمية، وتارة الدولة العلوية، وتارة الدولة الإسماعيلية، ونحو ذلك.

فالدولة العبيدية الفاطمية: هي دولة شيعية، تعظِّم أهل بيت النبوة، وتنتسب إليهم، وتنتصر لهم، وتغالى بعض أفرادها في تعظيمهم إلى درجة لا يقرها الدين الإسلامي ولا العقل السليم. ([39])

والدولة العبيدية نسبة إلى مؤسسها الأول **عبيد الله بن ميمون القدَّاح.** ([40]) وهو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القدَّاح بن ديصان الثنوي الأهوازي. وهو مجوسي، من أصل فارسي، من الأهواز. ([41]) وقيل: يهودي. وذهب المقريزي إلى أن ذلك من المغالاة والمبالغة، وقال بالأول. ([42]) وكان عبيد الله من أشهر الدعاة السِّرِّيين الباطنيين. ومن دعوته، كانت دعوة القَرامِطة. وبدأت دعوتهم بالأهواز، ثم انتقلت إلى الشام، واستقرت بقرية السَّلَمية. ومات عبيد الله، فخلفه ابنه أحمد، ثم هلك، فخلفه ولده الحسين، ثم أخوه سعيد بن أحمد. وكانت الدعوة سرا، ثم استفحل أمرهم واستطار شرهم، فخافهم الخليفة العباسي المتوكِّل، فحاول القبض على إمامهم سعيد بن أحمد، ففر إلى المغرب، ونشر دعوته هناك، وعظم أمره حتى تغلب على الأغالبة، وملك البلاد، وذلك عام 297 هـ، وتلقَّب يومئذ بـ: عبيد الله المهدي، وادعى أنه من آل البيت، وانتحل لقب الإمام، ليكون في عداد أئمة آل البيت، ومن ثَّم عرفت دولتهم بدولة الفاطميين. ([43])

والدولة الفاطمية: نسبة إلى فاطمة الزهراء، بنت رسول الله ρ. وذلك لخداع الناس وتضليلهم بهذا النسب النبوي الشريف. ([44])

والدولة العلوية: نسبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

([38]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 53.

([39]) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للطاهر أحمد الزاوي، ص 181، الطبعة الرابعة 2004 م، دار المدار الإسلامي، بيروت – لبنان.

([40]) **القدَّاح:** هو والد عبيد الله المهدي، لقِّب بـ: القدَّاح، لأنه كان يعالج العيون بالقدح. (تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 182) فكان كحَّالاً يقدح العيون. (الدولة العبيدية في ليبيا، ص 52)

([41]) اتعاظ الحنفا، 28/01.

([42]) المرجع السابق، 37/01.

([43]) نصائح غالية، للدكتور آدم بن عبد الله الهلالي، ص 122، الدار السلفية، الجزائر.

([44]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 51.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

والدولة الإسماعيلية: نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (ت 145 ه)؛ الذي قالوا بإمامته، وكان أكبر أولاد أبيه جعفر. وانتقلت إمامة الإسماعيلية إلى محمد بن إسماعيل بعد وفاة جده جعفر الصادق. ([45])

وهي نسبة وهمية، باطلة، إلى النسب النبوي الشريف، بقصد الخداع والتضليل، للتسلل إلى قلوب العامة، والتمكن من النفوس، وتحقيق النفوذ وبناء الدولة، بتأشيرة النسب النبوي.

وقد أخذ الأئمة الإسماعيلية منذ منتصف القرن الثاني الهجري يوجّهون جهودهم إلى نشر دعوتهم في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، وقد لقيت دعوتهم نجاحا كبيرا في بلاد المغرب، وخضعت كثير من بلاد شمال إفريقيا لدعوتهم، وقامت الخلافة الفاطمية بتلك البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري. ([46])

موقف الدولة العبيدية من المذهب المالكي.

كان موقف الدولة العبيدية من المذهب المالكي موقفا عدائيا مناوئا من أول الأمر، لاختلاف العقائد والمبادئ والاتجاهات. وذلك لأن المالكية يقولون بعدالة عامة الصحابة، وأن من سبَّ الصحابة يكفر، فيما أن بني عبيد يقولون بخلاف ذلك، ويسبُّون الصحابة جهرة، ويأتون الكفر البواح. وكان علماء المالكية لهم بالمرصاد، بالشدة والحزم والتصدي وجها لوجه، لحفظ هوية الأمة وحماية الإسلام وصيانة الدين من العدوان والضياع. ولذلك أعلن بنو عبيد حربا مفتوحة على فقهاء المالكية.([47])

فإنه لما استقر أمر عبيد الله المهدي في رقادة والقيروان، وجد معارضة شديدة لمذهب الشيعة من أنصار المذهب المالكي وبعض الحنفية، بما أشعره بأن دولته لا يمكن أن تستقر في إفريقيا بهذه الصفة، لاسيما أن المعارضين ينظرون إليها بأنها غير سنيَّة، وتخالف ما عليه السلف. وأراد المهدي أن يبتعد عن القيروان محل النزاع ومعارضة المالكية، فبنى المهدية، وانتقل إليها، وسلَّط أنصاره على سكان الضواحي، فأرهبوهم، محاولين إخضاعهم بالقوة. فاشتدت عداوة المالكيين له، وصاروا ينظرون إلى دعوته نظرتهم إلى دعوة المبتدعة، مما زاد في قلقه، وهزَّ مركزه، فجاهروا بإنكار مذهبه، وأعرضوا عنه، ورفضوا طاعته، وامتنعوا عن دفع الضرائب، وغير ذلك. وحصلت مناظرات بين الفريقين، فانتصر المالكية على بني عبيد وأفحموهم، وأصبح عبيد الله ومذهبه أبغض شيء إلى إفريقيا.

وبدا لرجالات الدولة الفاطمية أن بقاء دولتهم في إفريقيا مهدَّد بالزوال ما دام المالكية يناهضونهم، فأصبحوا يحسبون لهذا الأمر حسابه. ([48]) وباشروا تنفيذ السياسية العدائية المخططة ضد المذهب وأهله، لإخلاء الساحة، وبسط السلطان العبيدي في المغرب الإسلامي.

7- **سياسة الدولة العبيدية في التعامل مع المذهب المالكي.**

([45]) تاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور محمد جمال الدين سرور، ص 20.
([46]) المرجع السابق، ص 11.
([47]) قيام دولة المرابطين، ص 93- 95.
([48]) الفتح العربي في ليبيا، ص 187- 188.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

مرت بالمغرب محن شديدة ونوازل عظيمة في تاريخ المماليك والدوَيْلات، ومن جملتها: محنة العبيديين، حيث نهجت الدولة العبيدية سياسة إقصائية عنيفة بالغة السوء، وارتكبت جرائم شنيعة مهولة ضد المذهب المالكي وأهله وعلمائه خاصة ممن ليسوا على نهجها، وأخذوا ينشرون عقائدهم الباطلة في كل ناحية. ([49])

ويظهر ذلك فيما يأتي عرضه من الوقائع والأحداث التاريخية الشاهدة على ذلك:

- **ادعاء الرسالة وتأليه عبيد الله المهدي:** ففي سنة 299 هـ، ادعى عبيد الله المهدي الرسالة، وألَّهه أتباعه، وكانت أيمانهم المغلَّظة: « وحق عالم الغيب والشهادة: مولانا الذي برَقَّادة ». وكان بعض أئمتهم يصلُّون إلى رقَّادة، فلما انتقل عبيد الله إلى المهدية، صلَّوا إليها. وكان شعراء الدولة العبيدية يمدحون خلفاءهم إلى درجة الكفر البواح، ومدح أحد شعرائهم عبيد الله المهدي، فقال:

حل برَقَّادة المسيح حل بها آدم ونوح

جل بها الله ذو المعالي فكل شيء سواه رايح

وشبَّه شعراؤهم المهدية بمكة المكرمة، وقصر المهدي بالكعبة، فقال شاعرهم:

هي المهدية الحرم المُوقَّى كما بتهامة البلد الحرام

وإن لثم الحجيج الركن أضحى لنا بعراص قصركم التثام

ولما وصل عبيد الله إلى رقَّادة، أرسل إلى القيروان، للإتيان بأبي بكر بن هذيل وإبراهيم بن البردون، وكانا فقيهين فاضلين من فقهاء القيروان. فلما وصلا إليه، وجداه جالسا على سرير ملكه، وعن يمينه أبو عبد الله الشيعي، وعن يساره أخوه أبو العباس، فقالا للشيخين: أتشهدان أن هذا رسول الله ؟ فقالا بلفظ واحد: « والله، لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره، يقولان: إنه رسول الله، ما قلنا ذلك »، فأمر بذبحهما، وبربطهما إلى أذناب البغال. ([50])

وطلب من ابن البردون لما جرد للقتل، أترجع عن مذهبك ؟ قال: أعن الإسلام أرجع ؟! وكان ابن البردون عالما بارعا، يتكلم في تسعة أعشار القياس، فدارت عليه الدوائر في أيام عبيد الله، وضرب بالسياط. ورفعوا إلى أبي عبد الله الشيعي أن ابن البردون وأبا بكر بن هذيل يطعنان في دولتهم، ولا يفضلان عليا، فحبسهما، وأمر متولي القيروان بضرب ابن هذيل خمس مائة (500) سوط، وضرب عنق ابن البردون، فغلط المتولي، فقتل ابن هذيل، وضرب ابن البردون، ثم قتله من الغد. وكان ذلك سنة 299 هـ.

وأجبر العبيديون الناس على الدخول في دعوتهم. فمن أجاب، تركوه، وربما ولوه بعض المناصب. ومن رفض، قتِل، كما فعلوا في أول جمعة خطبها عبيد الله في القيروان، فوقعت مقتلة عظيمة، ودارت

([49]) قيام دولة المرابطين، ص 93- 94.

([50]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 85- 91.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

على علماء السنة محن عظيمة، وقتل منهم عدة آلالاف، بسبب تمسكهم بالإسلام، ودفاعهم عن السنة. ([51]) وفي هذا، قال أبو الحسن علي القابسي (ت 403 هـ): « إن الذين ماتوا في دار البحر (سجن العبيديين) بالمهدية، من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلالاف رجل في العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح ». هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن ويمثَّل بهم في شوارع القيروان. ([52])

- **سب الصحابة الكرام:** أخذ بنو عبيد يسبُّون الصحابة في الأسواق وعلى المنابر، بأبشع الأسجاع. وعلِّقت رؤوس الأكباش والحمر على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلَّقة، مكتوب فيها أسماء الصحابة. ومن تكلم أو تحرك، قتِل ومثِّل به. وزعموا أنهم قد ارتدُّوا بعد النبي ρ، وخصَّصوا دعاة للنداء بذلك في الأسواق. ومن ذكرهم بخير أو فضَّل بعضهم على علي رضي الله عنه، سجن أو قتِل. وذلك بمثابة حرب نفسية قائمة ضد أهل السنة. ([53])

- **تعطيل الشريعة وإسقاط التكاليف الشرعية:** عطَّل العبيديون الشرائع، وألغوا التكاليف، وأسقطوا الفرائض، وأباحوا المحرَّمات، عمن تبع دعوتهم، بإعلان مباشر من عبيد الله المهدي، حيث يدخل الأتباع إلى داموس؛ وهو حفير مظلم تحت الأرض، لا منفذ له، ويدخل عليهم عبيد الله لابسا فروا مقلوبا، دابًّا على رجليه ويديه مثل الدابة، وهو يقول: بح. وذلك تعبيرا عن قلب الدين وإباحة كل شيء، ثم يلبس ثيابه العادية، ويعود إلى كرسي ملكه، ويقول لهم: أنتم مثل البهائم، لا وضوء ولا صلاة ولا زكاة ولا شيء عليكم من الفرائض. سقط جميع ذلك عنكم، والأشياء كلها مباحة لكم؛ من الزنا والخمر وجميع ما حرم الله. ([54])

ومنع العبيديون الناس من قيام رمضان، ومنعوا صلاة الضحى، وقدَّموا صلاة الظهر، لفتنة الناس. أما خطبة الجمعة، فقد أظهروا فيها سب الصحابة الكرام، وضروبا من الكفر، فتركها الناس، فأفقرت المساجد في زمانهم. وكثيرا ما أجبروا الناس على الفطر بالحساب قبل رؤية هلال شوال، بل قتلوا من أفتى بخلاف ذلك، كما فعلوا بالفقيه محمد بن الحُبُلي؛ قاضي مدينة برقة، في يوم العيد قبل رؤية الهلال، وعلِّق في الشمس إلى أن مات. وكان يستغيث من العطش، فلم يُسق، ثم صلبوه على خشبة. وبلغت استهانة العبيديين بالمقدسات أن دخلت خيل عبيد الله المهدي المسجد، فسئل أصحابها عن ذلك، فقالوا: إن أبوالها وأرواثها طاهرة، لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيِّم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي، فقتله. ([55])

([51]) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا وزهَّادهم ونسَّاكهم وسيَّر من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي، تحقيق بشير البكُّوش، ومراجعة محمد العروسي المطوي، 49/02، الطبعة الثانية 1414 هـ = 1994 م، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان.

([52]) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض السبتي، تحقيق عبد القادر صحراوي، 303/05، الطبعة الثانية 1403 هـ = 1983 م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المملكة المغربية.

([53]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 86- 92.

([54]) رياض النفوس، 504/02- 505.

([55]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 90- 92.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

- **التغيير في الآذان:** زاد العبيديون في الآذان، وفرضوا على الناس أن يؤذِّنوا بـ:"حي على خير العمل". ([56]) وأسقطوا من آذان الفجر: « الصلاة خير من النوم ». ([57])

- **حظر الإفتاء بالمذهب المالكي:** حظر العبيديون الفتوى بمذهب الإمام مالك، وجرَّموا ذلك، وعاقبوا المفتي به بالضرب والسجن أو القتل أحيانا. ويدار بالمقتول في أسواق القيروان، وينادى عليه: « هذا جزاء من يذهب مذهب مالك ». وقصروا الإفتاء على المذهب الجعفري؛ الذي ينسبونه إلى جعفر بن محمد، ويسمونه مذهب أهل البيت. وفيه سقوط طلاق البتة، وإحاطة البنات بالميراث، وغير ذلك. ([58]) ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم، كما فعلوا بالفقيه أبي عبد الله محمد بن العباس، المعروف بـ: الهزلي (ت 329 هـ).

- **مصادرة المصنَّفات السُّنية ومنع التحليق والتدريس:** أتلف العبيديون مصنَّفات أهل السُّنة، ومنعوا الناس من تداولها، كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التُّجِيبي (ت 346 هـ)؛ الذي ترك سبعة (07) قناطير من الكتب المخطوطة بخط يده، فأخذها سلطان بني عبيد، وصادرها، بغضا في الإسلام وأهله.

ومنع العبيديون علماء أهل السُّنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السُّنة لا تقرأ إلا في البيوت، خوفا من بني عبيد. ومنعوا الفقهاء المالكية من الفتيا والتحليق والتدريس، فكان من يأخذ عنهم ويتذاكر معهم، إنما يكون سرا، وعلى خوف ورُقبة. فكان أبو محمد بن أبي يزيد وأبو محمد بن التبَّان، وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر بن اللبَّاد؛ شيخ السنة في القيروان، في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتَّل بالعرق، خوفا من بني عبيد. ([59])

- **استخدام أساليب الدعاية والإغراء والترويع:** استخدم الفاطميون كل الوسائل في مواجهة خصومهم المالكيين، ورفع لواء مذهبهم، فعقدوا المناظرات، وجلبوا أئمة المالكية بالقيروان، يناظرونهم، وأخذوا يناقشونهم الحجة، ويقارعونهم الرأي، فما ازداد المالكية إلا تمسكا برأيهم. وعمدوا إلى سياسة التأثير بالمال، واستخدام الجاه، فلم يؤثر ذلك شيئا في المالكية. فاتجهوا إلى أسلوب التعذيب والتنكيل، وضربوا الفقهاء والمؤذِّنين بالسياط، بل قطعوا لسان مؤذِّن نسي أن يقول: "حي على خير العمل"، وضربوا الرقاب، وصلبوا بعض الفقهاء أحياء. وأمعنوا في تقطيع أجسام بعض العلماء إلى أجزاء، وبطحوا الناس على ظهورهم، وأمروا عبيدهم بأن يدوسوهم بالأقدام حتى تزهق أرواحهم. وصادروا الأموال، واستولوا على الأحباس، وأجلوا أهل الربط والحصون المتعبدين المنقطعين

([56]) قيام دولة المرابطين، ص 93- 95.
([57]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 91/88.
([58]) ترتيب المدارك، 121/05.
([59]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 88- 89.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

إلى الله، وبثُّوا العيون على الناس في صلاتهم ينكِّلون بكل من لا ينصاع لأوامرهم أو يخرج عن دعوتهم. ([60])

وبالجملة: فقد كان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر، كأنهم أهل ذمة، تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة. ([61])

- **منع التجمعات وفرض حظر التجول بالليل:** منع العبيديون التجمعات عامة، وكانوا يفرِّقون التجمعات الجنائزية على موتى العلماء، خوفا من الثورة والخروج عليهم، وفرضوا حظر التجول بعد ضرب البوق في أول الليل.

- **إزالة آثار الخلفاء السنِّيّين السابقين:** عمل العبيديون على إزالة آثار من تقدمهم من الخلفاء السُّنِّيّين، وأصدر عبيد الله أمرا بإزالة أسماء الحكام الذين بنو المساجد والحصون، وجعل اسمه بدلا عنهم، واستولى على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العبَّاد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي، وجعله مخزنا للسلاح. ([62])

وغير ذلك من الأساليب الإجرامية التي استخدمها بنو عبيد لتصفية المالكية من الخريطة المذهبية في المغرب العربي.

ويذكر المؤرخون هنا: « أن هذه الأوضاع أثرت على سير الحياة العلمية، وقد خمل ذكر كثير من العلماء الذين آثروا الاعتزال، مثل: أبي محمد الورداني ». ([63])

فشل السياسة العبيدية في القضاء على المذهب المالكي.

فشلت الدولة العبيدية في سياستها الاستئصالية الحاقدة في القضاء على المذهب المالكي، بتصفية علمائه وأهله ومحو ميراثه، وتعبيده، وإزالته من الوجود في المغرب الإسلامي. فلم يستسلم المذهب، ولم يسلِّم نفسه للضياع، ولم يتخل عن أهله، ولم يخرج عن رسالته، ولم يقدِّم رقبته للذبح، بل بقي المذهب صامدا، واقفا، متصديا، في وجه المحن والنوازل المزلزلة من بني عبيد، وأخذ يقارع وينازل إلى آخر المطاف، بإيمان وصدق وثبات، بإذن الله تعالى.

يقول الدكتور علي الصلابي: « ومع ذلك، فإن هذه الفتنة لم تزد أهل الشمال الإفريقي إلا عزيمة وصبرا واحتسابا وتمسكا بأصول أهل السنة والجماعة ». ([64])

موقف الفقهاء المالكيين من الدولة العبيدية.

([60]) قيام دولة المرابطين، ص 95- 96.
([61]) ترتيب المدارك، 303/05.
([62]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 86- 88.
([63]) المرجع السابق، ص 89.
([64]) قيام دولة المرابطين، ص 96- 97.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وقف الفقهاء المالكيين من الدولة العبيدية موقفا شرعيا أصيلا ثابتا، من وحي القرآن والسنة، فرأوا أن العبيديين زنادقة، كفرة، لما أظهروا من خلاف الشريعة، وأعلنوا من عقائدهم الفاسدة بحق الدين وأهله.

وقد سجل التاريخ البشري عامة والتاريخ الإسلامي خاصة للعلماء المالكيين هذه المواقف الدفاعية النادرة الشريفة في طريق الإسلام، فاستحقوا تحية التجلّة والتعظيم بحق الدين والتاريخ، بما امتازوا به من قوة الشكيمة والثبات والتضحية والتحدي، وإعلان الحق ورفض الباطل، بعزة وشموخ، وفداء الدين بالنفس والأهل والمال، في مواجهة الدولة العبيدية المارقة عن الدين والفطرة.

وقد وقف المالكية في وجه بيني عبيد وقفة رجل واحد، وأفتوا بتكفيرهم، وبأن لا تخطب لهم جمعة، وكل من يخطب لهم يعتبر كافرا، يقتل ولا يستتاب، وتحرم عليه زوجه، ولا يرِث ولا يورَث. واعتبروا الفاطميين زنادقة، ونادوا بقتلهم حيثما وجدوا، ومقاطعتهم، ولا يؤمُّون لهم صلاة، ولا يحضرون لهم صلاة الجماعة، ولا الجنائز، فأفقرت المساجد من المصلين، وقاطع الناس قضاة الشيعة وعمالهم، ورفضوا دفع الأموال، وانتشر تيار المقاومة في المغرب كله، وشق الفقهاء عصا الطاعة على الفاطميين في كل مكان، وأقبلوا على الاستشهاد بنفس راضية، حتى قيل لأحدهم: « السيف ينتظرك، فقال: الصراط أحدّ من السيف ومن السلطان ». وكان يخيَّر الواحد منهم بين الدخول في طاعة العبيديين أو القتل، فيختار القتل. وكانوا يفرُّون بمذهبهم إذا استطاعوا، يعتصمون بالمقابر، ويؤيدون كل ثائر، وانضموا إلى أبي يزيد مُخَّلد بن كيداد اليَفْرَني حين خرج على الفاطميين برغم أنه خارجي، لأنه من أهل القبلة، على حين أن الفاطميين زنادقة كفرة. ([65])

أساليب الفقهاء المالكيين في مواجهة السياسة العبيدية المنتهجة بحق المذهب.

قاوم علماء أهل السنة المد الشيعي الرافضي العبيدي بكافة الأساليب الممكنة، المادية والمعنوية، ونذكر من ذلك ما يأتي:

- **الصمود والتحدي:** وذلك بصمود العلماء وتحدِّيهم وثباتهم في وجه طغيان بني عبيد، بتحمل أنواع البلاء وصنوف الأذى والعذاب والقتل، لتثبيت عوام المسلمين، والتصدي لسياسة العبيديين العاملة على إخلاء الساحة من العلماء، بالترغيب، لضمهم إلى دعوتهم، وبالترهيب، ليسقط العامة.

- **التعبئة العامة، وتهيئة الخاصة والعامة لذلك:** وذلك بالتعبئة الشرعية والروحية والمعنوية الكاملة في مسار المواجهة، بشأن بني عبيد، وما صاحب حكمهم من نوازل ومحن، بتقوية العزيمة، ورفع مستوى الاستعداد لمواجهة مختلف الطوارئ والأحداث، وزرع روح التصدي والمقاومة والتضحية، من العلماء والعامة على السواء، في سبيل الحق والدين.

- **المقاطعة السياسية والشرعية:** وذلك بمقاطعة العلماء جميع المؤسسات الدولة العبيدية، فلا يصلُّون وراء أئمتهم، ولا يصلُّون على موتاهم، ولا يناكحونهم، ولا يتقاضون إليهم، ولا يتوارثون معهم،

([65]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 94- 95.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

ولا يأتون مهنئين ولا معزيين. وغير ذلك. وقد كان أبو يوسف جبلة بن حمود (ت 297 هـ) أول من دعا إلى مقاطعة العبيديين علانية في أول خطبة لنبي عبيد في جامع القيروان، وقالوا فيها ما لا يحل سماعه في الشرع، فخرج من المسجد، وكشف عن رأسه، حتى رآه الناس، وهو يقول: « قطعوها، قطعهم الله ». فمنذ ذلك، ترك العلماء حضور جمعة بني عبيد.

وفي الوقت نفسه، دعا العلماء إلى مقاطعة من استجاب وداهن العبيديين من الفقهاء، وإن لم يدخل في دعوتهم، ولذلك أفتى العلماء بطرح كتب أبي القاسم البَرَاذِعي. ([66])

وبلغ جبلة أن بعض أهل القيروان خرجوا يتلقون أبا عبد الله الشيعي، تقية من شره ومداراة له، فقال: « اللهم لا تسلِّم من خرج يسلِّم عليه »، واغتم لذلك غما شديدا. فلما انتهوا إلى وادي أبي كريب، جرِّدوا، وأخذت ثيابهم. فلما عرف جبلة بذلك، قال: « ما غمَّني إلا رجل واحد، فيه خير، لا دنيا له. والرجل هو: حماس بن مروان القاضي ». ([67])

- **بيان حكم الشرع في بني عبيد:** بيَّن العلماء حكم الشرع في بني عبيد دينا ودنيا، وذلك لتحصين العامة بالفتاوى الشرعية بشأنهم، باعتبارهم كفارا، وأنهم ليسوا من أهل القبلة، وتكفير من دخل في دعوتهم راضيا، أو خطب لهم في دعوتهم، ودعوا إلى جهادهم.

- **إقامة المناظرات والمجادلات العلنية:** اشتغل علماء المالكية بأسلوب المناظرات والمجادلات العلنية ما دعت إليها الحاجة في مواجهة بني عبيد، وذلك لإفحام الخصوم أمام عوام الناس، للذَّب عن عقائد أهل السنة، كما فعل أبو بكر القمودي في مناظرته أبي العباس الشيعي، فأفحمه أمام العامة.

وكذلك إبراهيم بن محمد الضبِّي؛ الفقيه البارع، الذي قتله بنو عبيد. وأيضا: أبو محمد عبد الله بن التبَّان، وأبو عثمان سعيد بن محمد الحدَّاد؛ الذي كان من كبار النظَّار، وناظر المهدي وأبا عبد الله الشيعي في العقيدة والدين. وغير ذلك.

- **تحويل التدريس والوعظ إلى بيوت العلماء:** فتح العلماء والفقهاء بيوتهم للناس، لفضح معتقدات العبيدية، وتعميق عقائد أهل السنة وأصولهم في أهل الشمال الإفريقي. وكان أبو إسحاق السَّبائي يفتح داره، ويأخذ في ذم العبيديين، ويكثر من ذكر فضائل الصحابة، وكانت داره كالمسجد، لكثرة من يقصدها من الطلبة. وكذلك أحمد بن نصر الهواري وأحمد بن يزيد الدبَّاغ. واضطروا لذلك بعد منع العبيديين لهم من التدريس في المساجد.

- **تعليم أبناء الكتاميين والصنهاجيين والبرابرة الموالين لبني عبيد:** قام العلماء بتعليم هذه الفئة، وذلك لغرس منهج أهل السنة، كما فعل أبو إسحاق الجبنياني وغيره، فإنهم كانوا يعلِّمون الأولاد الصغار أبناء حملة الدعوة العبيدية بحيل لطيفة مجانا، ترغيبا لهم، فصاروا من أهل السنة.

([66]) رياض النفوس، 42/02- 43.

([67]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 97.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

- **الجهاد ضد بني عبيد:** أعلن العلماء الجهاد ضد بني عبيد على المنابر. وأول من أعلن ذلك أبو سليمان ربيع القطَّان، ودعا أحمد بن أبي الوليد الناس في خطبة الجمعة إلى جهاد بني عبيد في الغد، أي يوم السبت. وتقدَّم العلماء والأئمة صفوف القتال. ([68])

- **تأييد الثوار ضد بني عبيد:** وذلك بتأييد أبي يزيد في ثورته ضد بني عبيد، رغم أنه خارجي، بسبب ما بلغ بالمالكيين من التنكيل والتمزيق، وسعيهم للتحالف مع أي جهة من أهل القبلة. ولكنه غدر بهم في قلب المعركة.

- **الاتجاه إلى التصوف:** وذلك بعد أن استحر القتل في علماء المذهب في ثورة أبي يزيد، واشتد الأمر أكثر بهذه الثورة، فاتجه أغلب من بقي من العلماء إلى التصوف، والابتعاد عن واقع الناس، حتى صار تدريس التصوف هو موضوع الحِلَق بدلا من تدريس الفقه وأصوله، فرارا إلى الآخرة، وابتعادا عن المواجهات الفقهية والأصولية في الحياة، لشدة الأذى والاضطهاد وحرب الاستئصال ضد المذهب وأهله، وقنوطا من تغيير الواقع، أو محاولة لتربية الناس على الصبر والابتلاء، حتى لا ينزلقوا في كفة الشيعة. ([69])

8- واقع المذهب بعد سقوط الدولة العبيدية.

استطاع المذهب أن يسترجع أنفاسه ويستعيد طاقته ويتجدد وينبعث في الواقع وينتشر من جديد بعد أن انزاح عنه خطر العبيديين. وظهر ذلك في جهود الإمام عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ)؛ الذي أعاد بعث تراث المذهب وإحيائه وتجديده، بالتأليف والتعليم والدرس والتنقيح والتوجيه، ونحو ذلك.

وبهذه الروح العالية والثبات والصمود والتحدي في وجه الظلم والطغيان من بني عبيد، ظفر المالكيون في آخر الأمر، وارتفع مذهب مالك في عهد المعز بن باديس الصنهاجي (406 هـ - 449 هـ)، ووصل إلى ديوان الحكم في الدولة الصنهاجية. وقضى المعز بن باديس على الشيعة بالقيروان وإفريقيا وفي المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، فانمحت دعوة الإسماعيلية، ونغلَّب مذهب مالك، فجبَّ القدَرية والمرجئة والمعتزلة، وغيرها، فأوغل إلى قلوب المغاربة، فأقبلوا عليه إقبالا عظيما. ([70])

وهذا لا يعني أن المذهب تعافى واستراح من هذه الفتن جملة بعد ذلك، فلم تكن إلا مدة يسيرة أشبه باستراحة محارب حتى عاد المذهب إلى تجرع مرارة سياسة البطش والتنكيل في عهد الدوَّيْلات. فبسقوط دولة المرابطين، وحلول دولة الموحِّدين؛ التي هدفت إلى محو المذهب وإزالته من المغرب جملة واحدة، وحمل الناس على المذهب الظاهري، مع معاقبة المخالفين والمشتغلين بالرأي، فأحرقوا كتب

([68]) رياض النفوس، 42/02.
([69]) الدولة العبيدية في ليبيا، ص 95- 105.
([70]) المذهب المالكي، ص 108.

المجلد العاشر/ العدد الثاني /01 ديسمبر 2018 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

المذهب المالكي، كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد، ومختصره، وتهذيب البراذعي، وواضحة ابن حبيب، ونحو ذلك من الكتب المالكية المختلفة.

وفي عهد الموحِّدين في أيام محمد بن تومرت في القرن الخامس الهجري، انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب المالكي في سائر البلاد، وكان يؤتى منها بالأحمال، فتوضع ويطلق فيها النار. وأمر الناس بترك الاشتغال بالرأي والخوض في شيء منه، وأمر جماعة من العلماء بجمع الحديث من مصنفات البخاري ومسلم، وفق ما يريد، وكان يمليه بنفسه على الناس، ويأخذهم بحفظه. ([71])

ومع ذلك، فلم تسقط الدولة الموحِّدية حتى عاد المذهب إلى ما كان عليه وأحسن من ذلك، بإذن الله تعالى.

([71]) المكتبات في الإسلام؛ نشأتها وتطورها ومصائرها، للدكتور محمد ماهر حمادة، ص 201- 202، الطبعة الثانية 1398 هـ = 1978 م، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.